دراسة في كتاب: "جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام بمدينة فاس" لأحمد ابن القاضي المكناسي (ت 1065 هـ)

الباحث: يونس العمراني
طالب باحث بسلك الدكتوراه، بكلية أصول الدين بتطوان
المغرب

ملخص البحث:

قد اهتم العلماء المسلمون بدراسة التاريخ والتأليف فيه، فألفوا في تاريخ الملوك، والفاتحين، والبلدان والمدن، والأعلام المشهورين، وغير ذلك من المواضيع التي ضمنوها مؤلفاتهم التي أغنت المكتبة الإسلامية والثقافية عموما، ومن هذه المؤلفات النفيسة كتاب: "**جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام بمدينة فاس**" لمؤلفه أحمد ابن القاضي المكناسي المغربي، والذي ضمنه جوانب مهمة من تاريخ مدينة فاس، والأعلام الذين حلوا بها، ونظرا للأهمية العلمية لهذا الكتاب عزمت على دراسته دراسة منهجية أبين من خلالها القيمة العلمية للكتاب وما يزخر به من معارف، خصوصا ما يتعلق بتاريخ مدينة فاس ، والتعريف بالأعلام الذين حلوا بها، فهو وثيقة تاريخية مهمة للمهتمين بالتاريخ عموما وبالتاريخ المغربي خصوصا، كما أردت من خلال هذه الدراسة أن أبرز المكانة العلمية للمؤلف أحمد ابن القاضي المكناسي وبإنتاجه العلمي الذي تزخر به المكتبات العربية.

وقد حصرت هذه الدراسة في مقدمة ثلاثة مباحث:

- التعريف بالكتاب ومؤلفه
- منهجية الكتاب
- علاقة التاريخ ببعض علوم الشريعة من خلال الكتاب

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على رسوله المصطفى الأمين ، الذي خاطبه المولى جل وعلا بقوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ الْغَٰفِلِينَ﴾[1] ثم قال الله تعالى له بعد أن قص عليه عددا من قصص الأنبياء السابقين: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾[2] ثم أمره بقوله: ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[3] ومن هنا تتضح أهمية دراسة القصص والأحداث التاريخية لمعرفة تواريخ الأمم والاستفادة مما حدث لها، والاعتبار بذلك، لبناء الحاضر واستشراف المستقبل، وقد اهتم العلماء المسلمون بدراسة التاريخ والتأليف فيه، فألفوا في تاريخ الملوك، والفاتحين، والبلدان والمدن، والأعلام المشهورين، وغير ذلك من المواضيع التي ضمنوها مؤلفاتهم التي أغنت المكتبة الإسلامية والثقافية عموما، ومن هذه المؤلفات النفيسة كتاب: " **جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام بمدينة فاس**" لمؤلفه أحمد ابن القاضي المكناسي، والذي ضمنه جوانب مهمة من تاريخ مدينة فاس.

وهذا البحث المختصر هو دراسة لهذا الكتاب المهم، وقد تم تقسيم الدراسة إلى ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: التعريف بالكتاب ومؤلفه

المبحث الثاني: منهجية الكتاب

المبحث الثالث: علاقة التاريخ ببعض علوم الشريعة من خلال الكتاب

المبحث الأول: التعريف بالمؤلّف والمؤلَّف

المطلب الأول: التعريف بالمؤلف (ابن القاضي المكناسي)

هو الشيخ الإمام النحرير، العالم العلامة الشهير، الفقيه، المحدث الأديب، الإخباري المؤرخ ، الحاج الرحالة، شهاب الدين[4]، المفضال، الفقيه المتفنن[5]، رياضي[6] أبو العباس أحمد بن محمد (بن عمر)[7]، بن محمد بن محمد بن أحمد بن علي بن عبد الرحمن[8] ، بن أبي العافية المكناسي الشهير بابن القاضي، من بيت عريق في الحضارة، بل ليس في بطون زناتة في المغرب: فاس ومكناسة وغيرهما؛ مثل أولاد ابن القاضي في تقدم الرياسة وتعدد الأئمة الأعلام ... وبيتهم بيت كبير في العلم والحسب[9].

ولي القضاء في سلا، واشتهر، وركب البحر حاجا سنة: 994 هـ، فأسره قرصان الإسبان وعذبوه، فافتداه أبو العباس أحمد المنصور السعدي أمير المسلمين بمبلغ كبير من المال[10].

وقد وصفه أيضا محمد بن جعفر الكتاني في "سلوة الأنفاس" بأوصاف تدل على مكانته العلمية والأخلاقية بقوله: "وكان حافظا ضابطا ، مؤرخا إخباريا ثقة، سال القريحة بالشعر، حسن العبارة، لطيف الإشارة، مستجمعا لعلوم الأدب، ماهرا في معرفة علوم الأوائل، مشاركا في غير ذلك لأئمة أماثل، وانفرد بعلم الحساب، ويتصرف فيهما تصرف الحوت في البحر.

وكان له اعتناء بنشر العلم وتدريسه، يختم مختصر خليل في أربعة أشهر، ذلك دأبه أبدا مع ما هو عليه من الأخلاق المرضية ، والأحوال المهدية ، والكرم الوافر، والتواضع، ولين الجانب، وحسن النية "11.

- **ولادته ووفاته :**

ولد ابن القاضي المكناسي عام ستين وتسعمائة (960هـ)، الموافق لسنة ثلاث وخمسين وخمسمائة وألف (1553م)، وتوفي سنة خمس وعشرين وألف (1025هـ) الموافق لست عشرة وسبعمائة وألف (1616م)12.

- **شيوخه:**

فمن شيوخه بالمغرب وغيره الذين كان لهم أثر كبير في نبوغه العلمي: والده، وأبو العباس أحمد بن علي المنجور الفاسي (ت995هـ)، وأبو عبد الله محمد بن قاسم القصار الغرناطي (ت1012هـ)، والفقيه الراوية أبو زكرياء يحي بن محمد السرَّاج الحميري (ت1007هـ)، والفقيه النوازلي أبو راشد يعقوب بن يحي اليدري (ت999هـ)، والفقيه المؤرخ أبو العباس أحمد بابا بن أحمد بن عمر التنبكتي (ت1032هـ)، وغيرهم ممن تضمنته فهرسته ، وكان يتردد على الشيخ أبي المحاسن ويحضر مجالسه[13].

ومن شيوخه بالمشرق: أبو إسحاق إبراهيم ، بن عبد الرحمن العلقمي ، المصري ، الشافعي (ت997 هـ [14])، وأبو زكرياء ، يحي بن محمد الحطاب(ت 995 هـ [15])، وسالم بن محمد السنهوري (ت1015هـ [16])، وغيره [17].

وذكر صاحب " شجرة النور الزكية " وصاحب " سلوة الأنفاس " أن ابن القاضي رحل مرتين إلى المشرق؛ الرحلة الأولى حج فيها وأخذ عن عدد من الشيوخ الذين تقدم ذكر بعضهم، والرحلة الأخرى كانت سنة (994) هـ، حيث ركب البحر، فوقع في يد القرصان الإسبان، وبقي عندهم أحد عشر شهرا، حتى افتداه السلطان أبو العباس المنصور السعدي.

- **تلامذته:**

وقد أخذ عنه عدد من الأعلام الذين حملوا نور العلم، ومصباح المعرفة، منهم : أبو العباس أحمد بن محمد المقري التلمساني صاحب " نفح الطيب " و" أزهار الرياض " (ت1041هـ)، والفقيه الأصولي المتكلم أبو مالك عبد الواحد بن أحمد بن عاشر الأنصاري الأندلسي صاحب المنظومة الشهيرة " المرشد المعين " (ت1040هـ)، وعلامة فاس أبو عبد الله محمد بن أحمد ميارة (ت1072هـ)، وغيرهم995هـ)[18].

- **مؤلفاته:**

ألف ابن القاضي تآليف عديدة في التاريخ، والفقه، والحساب، والفرائض، حظيت بالقبول من لدن علماء عصره وبعده؛ اعتمدوها، وعولوا عليها، ومن هذه التآليف:

- " جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام مدينة فاس" وهذا الكتاب هو موضوع هذه الدراسة.
- " درة الحجال في أسماء الرجال "
- " لقط الفرائد من لُفاظة حُقَقِ الفوائد "
- " المنتقى المقصور على مآثر الخليفة المنصور"
- غنية الفرائض في طبقات أهل الحساب والفرائض.
- نيل الأمل فيما به جرى بين المالكية العمل.
- وفهرسة حافلة جمع فيها شيوخه ومروياته، وغير ذلك من المؤلفات التي أغنى بها المكتبة الإسلامية بمختلف علومها، وما زال مواظبا على التصنيف والتدريس إلى أن توفاه الأجل سنة (1025هـ) رحمه الله [19].

المطلب الثاني : التعريف بالكتاب

"**جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام بمدينة فاس**" لمؤلفه أحمد ابن القاضي المكناسي هو كتاب يؤرخ فيه ابن القاضي لمدينة فاس، فيذكر فيه المدينة ومحاسنها، وما اختصت به، ثم يذكر بعد ذلك على حروف المعجم ملوكها وعلماءها وأعلامها، وما لهم من نظم وتأليف، ومن أخذوا عنه، أو أخذ عنهم، سواء كان من الغرباء القادمين عليها، أو من أهلها، كما تضمّن الكتاب ترجمة لأعلام حلوا بمدينة فاس، ويتألف الكتاب من: 699 صفحة بالتعليقات، بما فيها مقدمة الناشر التي وصلت حوالي 10 صفحات .

و ينقسم الكتاب إلى قسمين :

القسم الأول: يتكون من مقدمة المؤلف التي تبلغ 68 صفحة مع التعليقات، تليها التراجم مرتبة ترتيبا أبجديا، ثم يختم بفهرس الأسماء، وقد اشتملت تراجمه على أعلام الحقبة مابين 337 هجرية إلى منتصف القرن العاشر الهجري، وقد أضاف في النهاية جدولا صغيرا للتنبيه على بعض الأخطاء المطبعية، وهي ثمانية تصويبات .

القسم الثاني: استأنف فيه التراجم حسب الترتيب الأبجدي السابق، ثم ختم بالفهارس مرتبة هي الأخرى ترتيبا أبجديا على النحو التالي:

- فهرس موضوعات الكتاب
- فهرس أسماء الرجال والنساء
- فهرس أسماء الأجناس والقبائل والبطون والجماعات
- فهرس أسماء الأقطار والبلاد والأمكنة
- فهرس أسماء الكتب.

و ختم الكتاب بجدول الخطإ والصواب لما في القسمين معا من ثلاث صفحات؛ مستدركا بعض الأخطاء التي لم ينبه عليها في القسم الأول.

- **سبب تأليف الكتاب :**

يوضح ابن القاضي المكناسي أن سبب تأليفه لهذا الكتاب هو العرفان بالجميل وأداء واجب الشكر للخليفة أحمد المنصور الذي أنقذه من أسر العدو، وفي هذا يقول: "فلما خفف الله تعالى أسري وفك من ربقة العدو الكافر دمره الله تعالى أسري[20] ، على يد الإمام المعظم والملك الأفخم، إمام المسلمين ... جمعت لإيالته الكريمة تآليف تنوب عن شكري لأياديه ونعمته وتكون كإقرار بمنته "كالمنتقى المقصور، على ما أثر الخليفة أحمد المنصور" وكتاب: "درة الحجال في غرة أسماء الرجال " وغير ذلك من التآليف، فأردت أن أنشئ هذا أيضا تجديدا لشكره اللازم، ولاستدراك ما فاتني من بعض الواجب الملازم، فوضعته وسميته: "جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام بمدينة فاس"[21].

- **أهمية الكتاب :**

يعتبر كتاب "جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام بمدينة فاس" مصدرا مهما لتاريخ مدينة فاس خصوصا وللمغرب عموما، فقد وثق لجوانب مهمة من جغرافيا المغرب وطبائع أهله وأصل سكانه كما وصف أبواب مدينة فاس ومآثرها العمرانية والحركة العلمية بها إلى غير ذلك مما يعد عدة مهمة في معرفة تاريخ البلدان.

وعن أهمية الكتاب يقول أحمد المقري تلميذ ابن القاضي: "وهو كتاب جامع طالعته فرأيت فيه عجائب تدل على غزارة حفظ مؤلفه" [22].

وعن ما يتميز به هذا المؤلَّف عن باقي مؤلفات ابن القاضي يقول الباحث الدكتور جمال بامي[23] : "يتميز هذا المؤلف عن مؤلفات ابن القاضي الأخرى بنفس جغرافي ظاهر، لاشك أن حس الترحال كان حاضرا فيه بقوة ، فنرى صاحبنا يتحدث عن جغرافية المغرب وساكنته، والأصول العرقية للمغاربة، وعن فتح المغرب، وتوسع ابن القاضي في الحديث عن إدريس الثاني وبناء مدينة فاس، ووصف أبوابها ، وأسوارها، ومآثرها، والحركة التجارية بها، والحرف والصنائع وأحوال العمران، والعلاقات الاجتماعية، ووقف ابن القاضي عند بناء جامع القرويين المبارك ليتتبع بعد ذلك تطور مدينة فاس مع تعاقب الدول على حكمها ، مؤكدا على علاقة السياسة بالعمران... ثم انتقل ابن القاضي للحديث عن الحركة العلمية والفكرية بحاضرة فاس عبر التراجم والمناقب وحِلق الدرس" [24].

- **مصادر ابن القاضي في كتابه جذوة الاقتباس**

اعتمد مصادر مختلفة ومتنوعة، أهمها : كتب الحديث [25] وكتب الفقه[26] وكتب التاريخ العام [27]وتاريخ المدن[28] وكتب الطبقات[29] والتصوف[30] والمناقب وكتب البلدان[31] وكتب الأدب العربي[32].

- **طباعة الكتاب :**

"طبع الكتاب طباعة حجرية بفاس عام 1309 هجرية، في 358 صفحة ، بعناية الشريف الأديب السيد محمد الفاطمي بن الحسين الصقلي الذي بذل جهدا في تحقيق نصه، ثم قررت دار المنصور للطباعة أن تعيد طبعه طبعا عصريا عام 1393 هجرية، نظرا لأهميته وتضاؤل النسخ المتداولة منه، معتمدة في تحقيقه على نسخته المطبوعة وعلى نسخ خطية عديدة" [33].

❖ **المبحث الثاني : منهجية الكتاب**

اعتمدت على التعامل المباشر مع الكتاب، وقضيت وقتا كافيا في قراءته لاستنباط معالمه المنهجية، فخلصت في النهاية إلى أن ابن القاضي المكناسي في كتابه "جذوة الاقتباس" سلك الخطوات المنهجية التالية:

أولا : الموضوعات :

- **أولا: خصص جزءا من الكتاب للحديث عن فضل المغرب ومدينة فاس والمولى إدريس الثاني وجامع القرويين ومسجد الأندلس،** فأدرج تحت هذا الجزء العناوين التالية:

- مقدمة في فضل إقليم هذه المدينة (المغرب)
- سبب قدوم المولى إدريس من المشرق إلى المغرب .
- ولادة الإمام إدريس الثاني رضي الله عنه .
- وفود العرب على إدريس الثاني من القيراوان والأندلس .
- تاريخ تأسيس مدينة فاس .
- إدريس الثاني يستقر بفاس .
- إدريس الثاني يقيم بتلمسان ثلاثة أعوام .
- وفاة المولى إدريس الثاني واولاده .

- بناء جامع القراويين.
- خطباء جامع القرويين .
- بناء جامع الأندلس بفاس .

كما ضمن هذا الجزء ترجمة بعض أعلام فاس، وقد أخضعها للترتيب الأبجدي المغربي من الهمزة مرورا بالتاء والجيم والحاء والخاء والدال والراء والزاي والطاء والميم والنون نهاية بحرف الياء .

ثانيا : الإحالة أو الإسناد

فالتراجم التي ذكرها ابن القاضي في كتابه الاقتباس هي منقولة عن كتب من سبقه، ولهذا غالبا ما يحيل عليها، ويغفل عن هذا أحيانا، أما تراجم المعاصرين له أو الذين أدرك من أدركهم فهؤلاء يعتمد في التعريف بهم على ذاكرته وقلمه.

- **ثالثا: الترجيح بين الروايات**

يعرض أحيانا ابن القاضي بعض الروايات التاريخية المتضاربة فيدلو بدوله فيها، مرجحا إحداها على الأخرى، بناء على مرجح ظهر له واطمأن إليه، وكمثال على ذلك أثناء حديثه عن تاريخ بيعة عمر بن إسحاق المرتضى حاكما بمراكش ، ذكر رواية ابن رشيق في (ميزان العمل) وأنها كانت يوم الأربعاء غرة ربيع الأول من سنة ست وأربعين وست مائة، ورجح عليها رواية ابن أبي زرع الذي اعتبر رواية ابن رشيق مجرد وهم منه ، وعلل ذلك بأن الخليفة السعيد الذي سيخلفه المرتضى توفي يوم الثلاثاء منسلخ شهر صفر بتلمسان، وبالتالي لا يمكن أن يصل خبره من تلمسان إلى مراكش في ليلة واحدة، والصحيح أنه كان بين موت السعيد وبيعة المرتضى نحو عشرة أيام. [34] وأضيف مثالا آخر لترجيح ابن القاضي بين الروايات والأقوال بعد عرضها: فقد ذكر الأقوال الواردة في تاريخ حكم أرض المغرب وهي ثلاثة أقوال: قيل إنها فتحت عنوة، وقيل إنها فتحت بالصلح ، وقيل إنها فتحت مختلطة ، بعضها صلحا وبعضها بالسيف ، ثم رجح القول الثالث بقوله : وهو الصحيح والله أعلم .[35]

- **رابعا: الربط بين الوقائع التاريخية**

من الأمور التي لاحظتها في منهج ابن القاضي أنه يعرض أحيانا بعض الأحداث التاريخية وينبه في الوقت نفسه على أحداث مشابهة لها، ومن أمثلة ذلك أنه أثناء ترجمته للمفتي عيسى بن أحمد الماواسي ذكر أنه نزلت في أيامه نازلة برجل يضرب الدراهم المدلسة ، فأفتى أن يحبس في السجن حتى يموت ... ثم علق ابن القاضي بقوله: قلت ومن هذا المعنى أن قاضي الجماعة بقرطبة محمد بن بشير صح عنده تدليس رجل في الوثائق فأمر بقطع يديه.[36]

المبحث الثالث: علاقة التاريخ ببعض العلوم الشرعية من خلال كتاب "جذوة الاقتباس"

من خلال قراءتي لكتاب جذوة الاقتباس لابن القاضي المكناسي تبين لي أن هناك علاقة قوية بين التاريخ وبعض العلوم الشرعية، أذكر منها:

1- علاقة التاريخ بعلم الحديث:

هناك علاقة وثيقة بين التاريخ وعلم الحديث، فقواعد علم الحديث هي أصح القواعد لإثبات الوقائع التاريخية، وهي الطريقة العلمية الوحيدة لتصحيح الأخبار الغابرة.

وعن العلاقة بين العلمين يقول الإمام سفيان الثوري: لما استعمل الرواة الكذب، استعملنا لهم التأريخ [37]. ومن هنا اهتم المحدثون بتاريخ وفيات ومواليد المحدثين.

ومن خلال كتاب: "جذوة الاقتباس" تبرز هذه العلاقة الوثيقة بين هذين العلمين، ويظهر مدى تأثرهما ببعضهما؛ لأن الموضوع المشترك بينهما هو الرواية والإسناد، وابن القاضي المكناسي هو من العلماء الذين جمعوا بينهما ، فبراعته في علم الحديث سهلت عليه ولوج مجال التأريخ ، لذا نجده يذكر بعض الروايات بأسانيدها[38] ويعز أخرى لمصادرها[39]، ويذكر النصوص الأدبية بلفظها، ويصرح في كثير من المواطن أنه لم يقف على تاريخ هذه الحادثة أو وفاة ذاك العلم[40]، ومقصده في كل هذا تحري الصحة والتزام الأمانة العلمية في التأريخ لأنه يجد نفسه مقيدا بمجموعة من القيود والضوابط التي تلقاها وتشبع بها في علم الحديث. لهذا يقال: كل محدث مؤرخ، ولا عكس. فما من محدث إلا وله مشاركة في جملة من المعارف تشترك مع العلوم التي يُعنى بها المؤرخ، بخلاف المؤرخ الذي مقصده الأساس الحديث عن حوادث الأحداث والواقع ، دون التعريف بالأعلام ، ولا الغوص في البحث عن أحوالهم.

1- علاقة التاريخ بالفقه:

الفقه له تاريخه الذي يشهد على حركته، ونموه وتأثره وتطوره، وتحولاته المهمة، وهذه الحركة والنمو والتطور قد يكون بعضها مرتبطا بأحوال الفقيه، وما طرأ له من تحولات مذهبية، أو فكرية، أو سياسية ... والوقوف على هذه التفاصيل التاريخية يكشف اللثام عن مناطق الخفاء في جسم هذا التراث، ويهدي إلى صحة التصور وصدق التصديق، ومن ثَم صحة ترتيب المقدمات الموصلة إلى نتائجها . فمثلا دراسة التراث الفقهي وما عرفه من تطور وتحولات مهمة والتمييز بين قديمه وجديده وكيف نشأت بعض الفتاوى وكيف نمت بعد ذلك لا يمكن أن يدرس في منآى عن التوثيقات التاريخية.

"والجهل بهذا الباب يفتح باب النقد الهدام للتراث على مصراعيه؛ بحجة عدم مقبولية الآراء الفقهية القديمة في واقعنا؛ وذلك لعدم إدراك ولادة تلك الآراء وظروف نشأتها وتقلباتها وملابساتها، فإن من الجناية الكبرى على الفقه الإسلامي محاكته بغير واقعه وإنزاله على غير بيئته"[41].

لذا نجد ابن القاضي المكناسي – وهو الفقيه المؤرخ – قد ترجم في كتابه " جذوة الاقتباس " لبعض الفقهاء وذكر أحوالهم، وبعض التحديات التي واجهت بعضهم، كما هو حال الفقيه الورع سعيد بن محمد بن جميلة الذي رفض تولية القضاء الذي عرضه عليه الخليفة أبو الحسن المريني، لأنه رآى أن الجو السياسي السائد حينها لا يمنحه الصلاحية الكاملة لإقامة العدالة والحكم بما أنزل الله ، فقيده بالأدهم[42] فبقي صابرا محتسبا حتى مات[43].

إذن فالتاريخ ضروري للفقيه؛ لمعرفة المتغيرات الفقهية وتحولاتها، وهو أداة مهمة لمعالجة الواقع؛ لأنَّ هناك زوايا مظلمة في الفقه الإسلامي لا يكشف عنها إلا ملاحظة التاريخ، ويصحح النظر في تصورها وأسباب نشوئها.

وإذا كان الفقه ينشد (المحل) الذي ينزل فيه النص؛ فإنَّ التاريخ يعطي أوجه التكامل لصورة المحل من خلال البيئات التي نزل فيها النص، وكيف نمت الفتاوى الفقهية، وهي تراعي محال التنزيل. [44]

فمن خلال ما سبق تتضح العلاقة القوية بين التاريخ وعلم الفقه.

2- علاقة التاريخ بالسيرة النبوية:

التاريخ: فن يبحث فيه عن وقائع الزمان من حيثية التعيين والتوقيت، بل عما كان في العالم، وموضوعه: الإنسان والزمان [45].

أما كتب السيرة النبوية فمواضيعها قاصرة على حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وما يتصل بها من أحداث وأحوال.

فمن خلال موضوعي العلمين تتضح علاقة السيرة النبوية بالتاريخ، وأنها علاقة الجزء بالكل، فالسيرة النبوية هي جزء من التاريخ العام ، فكل ما يندرج تحت السيرة النبوية هو تاريخ، وليس كل تاريخ سيرة نبوية، فالتاريخ هو أعم من السيرة النبوية، ومن هنا نقول: إن تدوين السيرة النبوية[46] هي بداية لتدوين التاريخ الإسلامي الطويل والعريض، وقد اهتم علماء المسلمين بهذا التاريخ المجيد، وكتبوا فيه بنفس المؤرخ المتمرس مثل: ابن جرير الطبري، وابن كثير، والذهبي، وغيرهم من علماء الأمة الإسلامية. إلا أن السيرة تفترق عن التاريخ في أن موضوعها لا يستقيم بغير الإسناد الذي بمثله يقبل الحديث.

وأنا أقرا لابن القاضي المكناسي في كتابه هذا، أشعر أنه يستحضر المسؤولية الأخلاقية والأمانة العلمية التي يستحضرها كُتَّاب السيرة النبوية، تحريا للضبط، ولتجنيب المرويات شوائب الكذب والاختلاق والزيادات ... لذا نجده يكثر من الإحالة والإسناد ونسبة الأقوال إلى أصحابها.

3- علاقة علم التاريخ بالأدب

إن علاقة الأدب بعلم التأريخ هي علاقة الوسيلة بالغاية، فالبراعة الأدبية للمؤرخ هي أنجع وسيلة يمكن أن يوظفها المؤرخ في كتابته للأحداث التاريخية وسرده للوقائع والقصص بأسلوب سلس ومشوق تمكنه من التصوير الدقيق لكل التفاصيل المصاحبة للأحداث التاريخية الكبرى، كوصف المواقع الجغرافية، وما يكتنفها من مكونات طبيعية، كشكل الأنهار والبساتين والخلجان والمناخ وغير ذلك.

وهذه الميزة – أي: البراعة الأدبية – هي مما امتاز به ابن القاضي المكناسي في كتابه "جذوة الاقتباس" فهو يعرض الأحداث التاريخية بأسلوب أدبي واضح وبسيط، وفي الوقت نفسه متناسق وسلس ومعبر. كما تبرز قدرته الأدبية من خلال الأبيات الشعرية الكثيرة التي ضمنها كتابه، فبعضها نقلها عن أصحابها فأحال عليها[47]، وأخرى من نظمه وبنات قريحته[48]، وكذلك من خلال أسلوب التصوير الفني الذي ينهجه أحيانا في وصف بعض الأماكن والمواقع[49] ، وأحوال الطقس[50] .

كما أن النصوص الأدبية تكون أحيانا مرجعا للمؤرخ لاستلهام بعض القضايا والأحداث التي يوظفها في كتاباته التاريخية، والجدير بالتنويه هنا أن ابن القاضي المكناسي قد ضمن كتابه "جذوة الاقتباس" الكثير من النصوص الشعرية الأدبية إلا أنه لم يعتمدها كلها كمرجع لاستنباط حدث أو أحداث تاريخية معينة، وإنما ذكر أغلبها في سياق ذكر مناقب بعض الأعلام، أو مدح بعض المعالم كمدينة فاس، أو ذكرها ضمن مآثر بعض من ترجم لهم من الرجال والنساء، ولكنه في الوقت نفسه اعتمد بعض المصادر اللغوية ونقل عنها كنقله عن كتاب "البلغة" لابن الأنباري، وعن الأديب المزياتي، وابن عبدون وغيرهم.

الهوامش:

1 - سورة يوسف/ 3.

2 - سورة هود/ 119.

3 - سورة الأعراف/176.

4 - سلوة الأنفاس، للكتاني: 195.

5 - شجرة النور الزكية، لمخلوف:430/1.

6- الأعلا م، للزركلي: 236/1.

7 - شجرة النور الزكية، لمخلوف: 430/1.

8- سلوة الأنفاس ، للكتاني: 191/3.

9- المرجع السابق: 195/3.

10- الأعلام، للزركلي: 236/1

11 - سلوة الأنفاس، للكتاني: 195/3.

12 - شجرة النور الزكية، لمخلوف: 430/1.

13 - سلوة الأنفاس، للكتاني: 196/3.

14 - الأعلام، للزركلي: 195/6.

15 - المرجع السابق: 169/8.

16 - المرجع السابق: 73/3.

17 - شجرة النور الزكية: 431/1. وسلوة الأنفاس: 196/3.

18 - شجرة النور الزكية: 431/1. وسلوة الأنفاس: 197/3.

19 - سلوة الأنفاس: 191/3.

20 - أسره القراصنة الإسبان في عرض البحر وهو متوجه إلى الحجاز لأداء فريضة الحج في يوم الخميس 14 شعبان 994 هـ. جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، لابن القاضي، ص: 5.

21 - جذوة الاقتباس، لابن القاضي: 1/9-10.

22 - روضة الآس العاطر الانفاس، للمقري، ص: 299.

23 - رئيس مركز ابن البنا المراكشي للبحوث والدراسات في تاريخ العلوم في الحضارة الإسلامية.

24 - مقال للباحث جمال بامي تحت عنوان : أحمد ابن القاضي، نشر بميثاق الرابطة المحمدية للعلماء بتاريخ: 23-03-2012.

25 - يستدل على فضل بعض الأقطار بأحاديث نبوية، كاستدلاله على فضل بلد المغرب.

26 - كنقله عن الفقيه سعيد بن محمد المكناسي.

27 - كاعتماده على تاريخ الطبري.

28 - كنقله عن كتاب "المقباس في أخبار المغرب وفاس " للوراق ، وتاريخ ابن غالب

29 - كنقله عن كتاب " طبقات النحاة الصغرى " للسيوطي

30 - كنقله عن كتاب "التشوف " للفقيه يوسف بن النحوي، والرواية عن الزاهد الصالح يسكن بن موسى.

31 - كنقله من كتاب "نثر الجمان " لابن الأحمر " والروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون.

32 - كنقله عن كتاب " البلغة " لابن الأنباري، وعن الأديب المزياتي وابن عبدون

33 - مقدمة ناشر كتاب: "جذوة الاقتباس: 1/7-8.

34 - جذوة الاقتباس: 2/492-493.

35 - المرجع السابق: 1/13.

36 - المرجع السابق، ص: 503.

37 - الكفاية في علم الرواية، للخطيب البغدادي، ص : 119 .

38 - انظر جذوة الاقتباس: 520 - 521.

39 - انظر المصدر السابق: ص: 521 حيث يحيل على كتاب (التشوف) و ص: 533 حيث يحيل على كتاب (التكملة).

40 - انظر المصدر السابق: ص : 519 - 520.

41 - مقال علمي للدكتور هيثم بن فهد الرومي نشر بموقع نماء للبحوث والدراسات بتاريخ 16 ماي 2017 https://nama-center.com/

42 - الأدْهَمُ هو القيد، وسمي أدهما لسواده. انظر: مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح، لابن يعقوب: 1/296.

43 – جذوة الاقتباس: 517/2.

44 – مقال للدكتور هيثم بن فهد الرومي نشر بموقع نماء للبحوث والدراسات بتاريخ 16 ماي 2017 https://nama-center.com/

45 – الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ، للسخاوي، ص : 7

46 – من أوائل من اهتم بتأريخ أحداث السيرة النبوية وجمعها : موسى بن عقبة المدني:141هـ، وألف كتاب المغازي، ثم أبو المعتمر سليمان بن طرخان البصري: 143هـ، وألف كتاب السيرة الصحيحة ثم محمد بن إسحاق بن يسار:151هـ، وهو صاحب السيرة المعروفة.

47 – انظر جذوة الاقتباس، ص: 318.

48 – انظر المصدر السابق، ص: 46.

49 – انظر المصدر السابق، ص: 43-44

50 – انظر المصدر السابق، ص: 45.